منهج البحث التاريخي عند الثعالبي

الدكتور
خضر جاسم محمد الدوري
استاذ مساعد
قسم التاريخ / كلية التربية
جامعة الموصل

السيد
ثائر حامد محمد
مدرس مساعد
قسم التاريخ / كلية التربية
جامعة الموصل

منذ اواخر القرن الثالث واوائل الرابع الهجري – العاشر الميلادي دخلت جمهرة من كتاب الدواوين وندماء البلاط مجال التدوين التاريخي، واصبح تدوين التاريخ من مهمات الموظفين والمتمرين من البلاط. لقد اثر هذا التغيير في الهدف والمحتوى والاسلوب على السواء وغدت كتابة التاريخ للاحداث الجارية عملية سهلة مسلية للوى الخبرة من الكتاب ورجال الدواوين (١). ونشأ ماعرف بأدب المرايا حيث اضحى التاريخ بمثابة المرجع النظري والعملي للحاكم يستقي منه مبادىء سياسته في تدبير شؤون المملكة، واصبح الهدف من الكتابة التاريخية تأكيد العبرة الاخلاقية (٢) فحل الهدف التعليمي والتربوي الخلقي محل الهدف الديني.. واضحى الغرض منه اما تعليم السياسة والحكم بالامثلة السابقة لأهل السياسة والحكم واما كشف المفهمة الاخلاقية للافعال الصالحة والسيئة للاجيال، .(٣)

ولقد كان الثعالبي(*) من جملة الكتاب الندماء الذين ينتمون لهذه الجمهرة حيث كان لمركزه بوصفه احد الكتاب الندماء الاثر الواضح في طبيعة التدوين التاريخي لديه، والبحث الحالي محاولة لبيان منهج هذا المؤرخ وما اضافه لعملية التدوين التاريخي.

---

* بحث مستل من رسالة الماجستير للسيد ثائر حامد محمد الموسومة بـ « منهج البحث التأريخي عند الثعالبي » باشراف الدكتور خضر جاسم محمد والمقدمة إلى كلية الآداب / جامعة الموصل سنة ١٩٨٦ وهي غير منشورة .

كانت العبرة الاخلاقية من الماضي واحداثه هي الهدف الاساسي الذي من اجله دون الثعالبي التاريخ ليضع الابعاد السياسية لتلك العبر بين ايدي رجال السياسة والحكم حيث ورد لديه مصطلح (العبرة) في العديد من النصوص فعند حديثه عن مقتل يزدجرد وانتهاء ملك آل ساسان على ايدي المحررين للعرب يقول «وصار قتله عبرة وتاريخاً»(٤).

ولقد كان لفلسفة الأخلاق دورها البارز في توكيد هذا الهدف (العبرة الاخلاقية) لديه ذلك ان العبرة الاخلاقية عنده تعمل على تقويم السلوك الأنساني نحو الأفضل من خلال استقراء اخبار الماضين من رجال الحكم والسياسة للاقتداء بالاعمال الصالحة التي قاموا بها واجتناب الأعمال السيئة التي وقعوا فيها ، وهذا مما سيجعل من يؤلف له يسوس المملكة سياسة فاضلة وتكون مملكته (مدينة فاضلة) .

وهذا في الحقيقة هو الأساس النفسي الذي قام عليه كتابه تأريخ غرر السير الذي الفه متقرباً به إلى الأمير ابا المظفر نصر بن ناصر للدين (٥) أحد رجالات السياسة في المشرق الاسلامي الذي طلب من مؤرخنا ان يؤلف له كتاباً يتحدث فيه عن اخبار الملوك وسياساتهم ورسومهم ومحاسنهم مثالبهم وما كان لهم وماعليهم (٦) كي يكون له معيناً في تصريف شؤونه السياسية والادارية .

فالتأريخ بعبرته الأخلاقية خادم للسياسة معين لرجالها ، فتدوين الغرر من السير عند مؤرخنا يعني تاشير الأفعال الجميلة والافعال القبيحة وبذلك تحصل السعادة الانسانية باشاعة الفعل الحسن .

وثمة اشارات اخرى وردت عند مؤرخنا تظهر لنا من خلالها كيفية تعامله مع الحدث والاعتبار منه ، وقد رأيناه يقول « كم من حادث كارث صعب زال في اقرب وقت وأيسر أمر ومن اطلع على تواريخ الدول وحوادث الفتن علم كثيراً من ذلك » (٧).

ولقد دون مؤرخنا التأريخ لرجالات عصره باسلوب ارشادي ينم عن فكر نيّر وعقلية ناضجة سواء بطلب منهم كما هو الحال مع كتابه تأريخ غرر السير. (٨) أو برغبته الذاتية في أن يؤلف لهم في هذا الجانب كتبا كالمبهج أو السياسة أو الملوكي الخ .

وقياساً على ذلك يتضح ان السير والاخبار لدى الثعالبي تعني جملة التجارب أو العبر المستخلصة من مجموع أحداث السيرة المعنية أو الخبر المعني ، فهو بذلك كمسكويه أحد

معاصريه من المؤرخين الكتاب (٩) قد اطمأن إلى أن احداث التأريخ تتكرر ، الا أن اسباب الحدث والسياسات التي تبنى عليه ليست ثابتة .

لذا فقد كان من الاهمية بمكان ان يكشف اسباب حدوث الفعل (الحدث) التاريخي بوصفه جزءاً من تفسيره اولا ، ولتجنب حدوثه بالابتعاد عن مسبباته اذ كان فعلا (حدثا) سيئا(قبيحاً) والعكس صحيح ان كان فعلا (حدثا) حسنا (جميلا) ثانيا.

فالتاريخ في نظر الثعالبي كما هو في نظر مسكويه ليس سردا او رواية للاحداث التاريخية بل هو نظر وتأمل وتحليل للحدث وتشخيص لاسبابه (١٠) واستنباط العبر (الدلالات الاخلاقية) منه. فلا غرابة ان يهتم الثعالبي بتوضيح اسباب حدوث الفعل التاريخي(الحدث) مثال ذلك ماعرضه عن اسباب سقوط الدولة الساسانية(١١) واسباب الخلاف بين المنصور وابي مسلم (١٢) ، وما تحدث به عن اسباب ضعف الدولة العباسية ايام الخليفة المقتدر. (١٣) موضحاً اسباب حدوث هذه الافعال التاريخية ، وفي بعض الاحيان يعجز عن تفسير اسباب حدوث الحدث فيرجع الامر الى الارادة الالهية في ذلك (١٤).

وبذلك يكشف الثعالبي عن قدرته وحسه التاريخي لاكما ذهب احد الباحثين الى ان الثعالبي لم يكن يمتلك هذا الحس كما هي الحال عند مسكويه.(١٥)

ولطالما تأثر الثعالبي «بالحكمة الابدية» التي سادت عصره، فالعبرة المستخلصة من سرد (تجارب) الانسان عموما تصبح هدفا اساسياً لديه ولهذا نجده يسمي كتابه: غرر السير وهو ليس سير محدودة مقتصرة على عصر اوجنس اومكان اوملكه، وهنا لابد من الانتباه الى مسألة مهمة ،فعلى الرغم من عصر التجزئة السياسية الذي عاشه مؤرخنا فانه قدم لنا تاريخاً (خيراً) متصلا من خلال سير الرجال .

وأخيراً فأن المدرسة الادبية التي كان مؤرخنا ينتمي اليها قد تركت بصماتها على تدوينه التاريخي حيث حوى هذا التدوين في ثناياه العديد من القصص الخرافية والاساطير تحقيقاً منه في ذكرها لهدف وضعه لهذا الجانب من التدوين يتمثل في كون التاريخ يهدف كذلك الى التسلية والملهاة لمن يؤلف له، فكان يقول مثلا: «ولا أخلي الكتاب على طوله وامتداد فصوله من قصة رائعة او حكاية ملهية او نادرة مسلية.» (١٦).

٢ ـ المحتوى :

جاء المحتوى التاريخي لدى الثعالبي مجسدا الهدف الذي وضعه لهذا التدوين كون التاريخ يقدم للعبرة لرجال السياسة من استقراء احداث الماضي، فضلا عن كونه ملهاة وتسلية لمن يقرأه من عامة القوم في الدرجة الثانية .

لذا اتخذ هذا التدوين مجالات واسعة من العناصر التاريخية اشتملت على السير والاخبار التاريخية المختلفة التي عالجت السياسة والاقتصاد والنظم ومجالات اجتماعية اخرى لم تختص بعصر معين حوتها كتبه التاريخية وكتب المختارات لديه.

ويأتي كتابه تأريخ غرر السير في المقام الأول بين كتبه التاريخية وقد اتخذ المحتوى التاريخي مجالا واسعاً فيه، اشتمل على جميع انشطة الحياة، ويبدأ فيه بتاريخ ملوك الفرس الى اخر ملوكهم ، ثم تحدث عن الملوك الانبياء وعن دول العرب قبل الاسلام، ومن ثم انتقل الى تواريخ الامم الاخرى ليعود فيتحدث عن تاريخ الدولة الاسلامية مبتدأ بسيرة المصطفى محمد (ص) ومنتهيا بعصر السلطان محمود للغزنوي (١٧) . متخذا في كتابه هذا التقسيم السيري حسب حكم الملوك والخلفاء تاركا التقسيم الحولي،ومن خلال المنهج السيري كان يثبت عناوين الاحداث التي يدونها ومن هذه العناوين على سبيل المثال: «ذكر ماجرى عليه احوال كيقباذ وما صار من كلامه.»(١٨) ذكر ملوك الطوائف بعد الاسكندر»(١٩) «ذكر خروج سليمان بن هشام على مروان (بن محمد)»(٢٠)«استهلال الدعوة الهاشمية والدولة العباسية» (٢١) .

فالملوك والخلفاء لدى الثعالبي رأس الناس وغرتهم وحول اشخاصهم يدور الخبر المروي وفي بلاطاتهم تصنع الاحداث التاريخية، ومن خلال ذلك يعطي المؤرخ صورة متكاملة للعصر الذي يتحدث عنه مرجحاً الخبر التاريخي الذي فيه العبرة الاخلاقية التي تخدم الحاكم وتحقق الهدف الذي من اجله يدون التاريخ دون اغفال منه لباقي انشطة الحياة الاخرى.

وقد حرص الثعالبي على ان لايخلو كتابه من «قصة رائقة او خبرة واعظة او حكمة بالغة او حكاية ملهية او نادرة مسلية».(٢٢)

فنشر لنا آراءه وتصوراته عن الكثير من الامور التي تناولتهـا تلك الاخبار والسير والحكم والحكايات ، وسجل مادة واسعة عن السلطة الحاكمة ونظمها مبيناً لنا ايمانه المطلق بالحق الالهي في الحكم ، وهو يعني الايمان المطلق بسلطة الحاكم لان سلطته مستمدة مـن

سلطة الله وسياسته التي يحكم بها في الاغلب يجب عدم معارضتها بأي شكل من الاشكال ويعبر عن نظرته هذه بقوله «انما جرت العادة من المتقدمين بأن يعدوا اسلافنا الملوك ارباباً لان افعالهم اذا وافقت العدل وأدت إلى المصلحة تشابه افعال الله تعالى ... فالالوهية ربوبية سماوية والملوكية ربوبية ارضية ، ويجب لمستحق هذا الاسم ان يلتزم احكام تدبير الخالق فيما يجرى على يده ... من امور الخلق» (٢٣) .

ووضح في مكان آخر طبيعة العلاقة بين الله والسلطان والرعية بقوله : «الناس بالزمان والزمان بالسلطان والسلطان بعد الله للملوك الذي استرعاهم امور عباده وملكهم ازمة بلاده فلا دين الا بهم ولا دنيا الا معهم» (٢٤) .

وحين يكون هدف التاريخ لدى الثعالبي خدمة السياسة ، فمن الطبيعي ان يورد الكثير من النصح والارشاد فيما يجب ان يكون عليه الملك في سياسته لرعيته ومن ذلك «ان يكون الملك كالغيث يحمي اذا همى والسيل يروي اذا طمى والبدر يهدي اذا سما» (٢٥) .

ومن ذلك ايضاً «الملك خليفة الله في عباده وبلاده ولم تستقيم خلافته مع مخالفته ، اذا شحن الملك قلوب جنده بالشحناء ، فلا ينظرن منهم حسن البلاء ، ولا تغني قوة الجيش مع ضعف الجياش ... امور الملك اصحاب الدراريع والاقلام وأرباب الدروع والاعلام ، فأولئك الكتب والاراء وهؤلاء الكتائب والرايات» (٢٦) .

لقد اتخذ مؤرخنا من الاسكندر ذي القرنين مثالا للحاكم الجيد الذي يمكن الاقتداء به والاخذ من سلوكه السياسي ، الجيد والابتعاد عن الاخطاء التي وقع بها في سياسته لرعيته (٢٧) .

ويتحدث مؤرخنا عن الاثر الذي يتركه ضعف الملوك وتفكك اوصال المملكة على بقائها واستمرار وجودها ويأتينا بمثال عن سقوط الدولة الساسانية ليوضح ذلك، ويصف لنا آخر ملوك آل ساسان يزدجرد بن شهريار بقوله : «ملك وهو مراهق ودولته لم يبق فيها الا رمق ، والاهواء مختلفة والجماعات متفرقة والامور مختلفة ودولة العرب بالنبي (صلى الله عليه وسلم) مقبلة ونور الاسلام ساطع ووعدالله تعالى باظهاره على الدين كله صادق فما زال يزدجرد يطير ويقع ويمشي في الارض على ضلع إلى ان انفذ امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سعد بن ابي وقاص في اخيار الصحابة والجيوش المنصورة إلى العراق فلما ورد التعذيب حل العذاب بالعجم» (٢٨) .

ويعطينا مثالاً على سوء عصر ملك من الملوك وما تركه سوء ادارته على المملكة مستشهداً

على ذلك بعهد الخليفة المقتدر (ت ٣٢٠هـ - ٩٣٢م) حيث يقول : «وهكذا كانت دولة المقتدر بالله كان في مبادئها من الفتن والوهن واختلال التدبير وفساد قواعد الملك مالاخفاء فيه وسببه انه ولي للخلافة وهو صغير وتصرفت والدته وخالته وقهرمانته في الملك وكان ماكان» (٢٨) .

ونظراً لاهمية منصب الوزير وخطورته ولكون الوزير على رأس السلطة السياسية بعد الخليفة ، فقد اولاه الثعالبي اهتماماً خاصاً لانه هو نفسه من طبقة الكتاب القريبة من مؤسسة الوزارة بالضرورة ، وقد كان على المام واسع بهذه المؤسسة ألف فيها كتباً متعددة ، ومنها تحفة الوزراء ، وسر الوزارة ، واعطانا معلومات واسعة عن هذه المؤسسة من حيث درجتها وابرز مجالاتها وطبيعة نظامها (٣٠) .

وتحدث كذلك عن استخدام الملوك ومن امم مختلفة منذ القديم للوزراء (٣١) ، وفي هذا دليل على اطلاعه على تاريخ تلك الامم ونظمها السياسية وما يتعلق بأصول الحكم فيها ، ومما يلفت النظر في هذا رفضه ان يكون في الدولة اكثر من وزير واحد ، «قد جرت عادة الملوك باستيزار الواحد والاثنين فصاعداً من الوزراء والجمع بينهم في زمان واحد ، وذلك خطل من الرأي وخطأ في التدبير ، وفيه خطر على المملكة ، اذ لايسع الغمد سيفين وكثرة الايدي في الصلاح فساده» (٣٢) .

ويحدثنا عن مراسيم تقليد الوزراء مناصبهم في الدولة العباسية وما كان يدور بين الوزير والخليفة من عبارات التقليد وما يزود به من شارات متحدثاً عن وزارتي التفويض والتنفيذ (٣٣) .

وقدحرص على تحديد الصفات التي ينبغي ان يتحلى بها الوزير من شرف الاصل والفضل (٣٤) . ويضيف «فاذا اجتمع الملك الفاضل والوزير الصالح الناصح ، فاعلم ان المملكة تكون ساكنة هادئة واحوالها واعمالها على النظام جارية» (٣٥) وهنا يسدي مؤرخنا النصح للملك في كيفية اختيار وزيره وما ستكون عليه مملكته من حال طيب اذا تم اختيار مثل هذا الوزير الصالح .

ويؤكد لنا استيزار وزير ليس اهلاً للوزارة يكون فيه خراب الدولة ويستعين بالتاريخ فيضرب لنا مثلاً استيزار فخر الدولة البويهي لصاحب مطبخه ابن بقيه الذي اصبح اضحوكة وموضع تندرهم (٣٦) .

اما واجبات الوزير تجاه المملكة من حيث الاعمار والاصلاح ورعاية الجند (٣٧) فيحددها ويرفض ان يكون للوزير سلطة على عمال البريد ، اذ قد يقوم بعزل الاخبار عن الحاكم ويستعين بالتاريخ ثانية ليثبت صحة رأيه فيورد حادثة «عبرة» وقعت للخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ - ٨٣٣م) ويكشف وجه الاتعاظ «والاعتبار» منها وذلك حين بايع المأمون علي بن موسى الرضا بمرو ، فنشبت ثورة اهل بغداد عليه واخفى الفضل بن سهل خبر الثورة عنه ، وعلم المأمون بذلك عن طريق احدى جواريه فدبر الامر ورفع سلطة الوزير عن عمال البريد (٣٨) ،ونجد في مدونات الثعالبي اخباراً عما كان بين الوزراء من تحاسد مقيت وسلوك غير مقبول (٣٩) احياناً .

ولقد ادرك الثعالبي كغيره من المؤرخين - الكتاب اهمية المال والثروة (الاقتصاد) في بناء الدول واستتباب الاحوال ، ومن اجل ان يقدم تلك المواد التاريخية للحاكم ليستعين بها في سياسة دولته ، فقد اورد اخباره الاقتصادية التي اتخذت مجالاً واسعاً في مدوناته ، اشتملت على وصف للاحوال الاقتصادية للدول على عهد حكامها مع التحدث بشكل مسهب عن اقتصاديات الاقاليم والمدن العربية والاسلامية في عصره ، فضلاً عن اعطاء جانب من الاهمية لما تركه خلفاء بني العباس من اموال ومتاع عند وفاتهم وما حدث لهذه التركات في ايام ضعف الخلافة .

ولقد كان الطابع الارشادي هو الغالب على مدوناته الاقتصادية في كتابه تاريخ غرر السير تحقيقاً للهدف الذي وضعه في كون التاريخ يقرأ للعبرة ، وهو خادم لسياسة من يؤلف له ويكتب . ومن هذه الاخبار التي فيها طابع النصح والارشاد ماتحدث به عن حركة العملة على عهد احد الملوك والسياسة المالية التي كانت على عهده (٤٠) .

ويأتينا بخبر تاريخي اقتصادي من خلال وصية ملك لابنه يظهر من خلاله مايجب على الحاكم القيام به تجاه مملكته في وقت الازمات، ان حالات الخصب والجدب تختلف في البلدان ، فاذا تخلفت الغلات وقلت الانزال في سنة من السنين وتخوف الملك العوز والقحط فينبغي ان يأمر باحراز المرتفع من الحبوب ويمنع من حمل المتاجرين شيئاً منها الى ناحية اخرى وان من شأن التجار وطلاب الأرض جلب الامتعة والمير من بعض النواحي الى بعض ... والآفات التي تأتي على الحيوانات والعمارات ترجع الى ثلاثة اصناف من القحوط العامة والفتن المبيرة والأوباء الشاملة والقحوط اصعبها ... فكم من مدينة قد هلكت بتقصير من سائسها والمدبر لأمرها» (٤١) .

وتأتينا اخبار اقتصادية كثيرة على مدى عصور الدولة العربية الاسلامية (٤٢) لكنه يركز في اخباره هذه على الدولة العباسية لقرب عهده بها ولتوفر المصادر والسجلات عنها اكثر من غيرها من الدول التي سبقتها .

فقد تحدث عن عطايا المنصور لأهله وعمومته في اطار السياسة التي اتبعها لتثبيت اركان الدولة (٤٣). وحالات الصرف والبذخ التي عاشتها قصور بعض الخلفاء عند اقامة بعض الحفلات فيها كتكاليف زفاف بوران بنت الحسن على الخليفة المأمون (٤٤) وحفلة ختان المعتز (٤٥) ويعطينا الثعالبي احصاءات عن تركات خلفاء بني العباس من الاموال والآثاث منذ عصر المنصور حتى ايام المستكفي(٤٦)معتمداً في ذكر قسم من اخباره على الصولي(٤٧) والقسم الآخر ربما يكون قد اطلع عليه من خلال رؤيته لبعض سجلات دولة بني العباس وهو يزودنا بمعلومات قيمة عن جزائر الخلافة وخزائنها وما انتهى بها الامر في عصر الخليفة المقتدر بالله (٤٨) . ويقول في ذهابها على يد المقتدر ومن جاء بعده : «ولقد امتدت الى جوهر الخلافة ايدي الخونة وأتى عليه سوء السياسة فلم يبق منه شيء فكأنه ذهب مع ذهاب الخلافة وتلاشي المملكة والله سبحانه الفاعل لما يريده (٤٩)

وتحدث مؤرخنا من خلال رواية أبي المظفر نصر بن ناصر الدين عن اخيه محمود وما كان يقوم به السلطان محمود الغزنوي من مهام لاجل تثبيت اقتصاديات الدولة الغزنوية لاسيما في وقت الازمات (٥٠) .

ونظراً لكون الثعالبي احد رجالات طبقة الكتاب ، لذا نراه يأتينا ببعض الاخبار التي لها مساس بالجانب الاقتصادي لهذه الطبقة ، فقد اورد ذكراً لرواتب طبقة الكتاب ايام بني امية وبني العباس حتى عصر المأمون حين زينت رواتبهم فتحسنت مكانتهم داخل الدولة والمجتمع (٥١) .

ولقد اولى بأقاليم الدولة العربية الاسلامية ومدنها من الناحية الاقتصادية اهتماماً خاصاً فأفرد لها باباً في كتابيه ثمار القلوب ولطائف المعارف . وذكر مايختص به كل اقليم من منتجات زراعية وصناعية وما كان يصل دار الخلافة منها مع ذكر لكمياتها مرقومة(٥٢)

وأعطانا أوصافاً لبعض هذه الأقاليم والمدن من ذلك وصفه لمدينة بغداد التي كان لها مكانة خاصة لديه وقدسيه لكونها عاصمة الدولة ومركز الخلافة ، وكان يتمنى ان تعود اليها هيبتها التي انتهكت في عصره (٥٣) .

وجاء عرضه لاقتصاد الاقاليم في الحقيقة مكملاً لما قام به الجاحظ عند تأليفه كتابه البلدان (٥٤) .

ولقد كان لشيوع الفرق والمذاهب المختلفة داخل كيان الدولة الواحدة الاثر البالغ على استقرار وسلامة هذا الكيان، ونظراً لما كان للفرق والمذاهب المختلفة من دور بارز في تفكيك وحدة الدولة العربية الاسلامية سياسياً واجتماعياً ، لاسيما في المشرق الاسلامي الذي هو موطن الثعالبي لذا نراه لايهمل هذا الجانب ، بل يتحدث عنه باسهاب ووضوح ومن ذلك كلامه عن بدايات المذاهب عبر التاريخ البشري . .

اذ يتكلم عن زرادشت وديانته وما اتى به من آراء وتعاليم (٥٥) . ولم يخف موقفه منها منتقداً زرادشت وتعاليمه بقوله واورد تخاليط وخرافات كثيرة (٥٦) . ويضيف «تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وله الحمد على نعمة الاسلام الذي هو احسن الاديان واصحها واظهرها وصلواته على المصطفى محمد خير من ارسل بخير ماانزل»(٥٧)

ثم يتحدث عن مانيّ والمنوية ويقول : «ان مانى الزنديق المتنبي لعنه الله وان الزندقة اول ماظهرت كانت مع ظهوره بدينه المزخرف المبهرج» (٥٨) . ويفصل لنا عن تعاليم مزدك والمزدكية (٥٩) ايضاً .

وقد اعطانا تفصيلات عن بعض المذاهب الاسلامية كالمرجئة (٦٠) فضلاً في حديثه عن الفرق الشعوبية التي ظهرت في العصور الاسلامية وبعض ثورات الخوارج (٦١)

ويعد عصر الثعالبي عصرٌ الرحلات الجغرافية ، حيث جاب العديد من العلماء المسلمين الاقاليم المعروفة من الأرض على عهدهم واستطاعوا الوصول اليه وتحدثوا عما شاهدوه فيها ، لذا جاءنا عنهم ماعرف بذكر العجائب لاسيما مايتعلق بالمنشآت العمرانية ، فكان على الثعالبي ألا يغفل هذا الجانب الحضاري المهم ، وقد صرح بأن العجائب العمرانية في عصره اربع وهي منارة الاسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق وقنطرة طنجة (٦٣) . وقدم وصفاً دقيقاً عن منارة الاسكندرية (٦٣) فيه خلاف عما ورد عند المسعودي عنها(٦٤) ولم يقنع بالروايات التي اخذها عن ابي معشر المنجم حول بناء الاهرامات وكان يصدرها بقوله «زعم ابو معشر» (٦٥) .

اما الحكم والامثال : فقد اخذت حيزاً لابأس به من المحتوى التاريخي عند الثعالبي منطلقاً في كون هذا النوع من النصوص يخدم من يؤلف له لان فيه العظة والارشاد، فضلا عن خدمته لنظرية «الحكمة الابدية» والتي كان مؤرخنا من المتأثرين بها واشتملت نصوصه

على مساحة واسعة من الزمن عبر تاريخ ماقبل الاسلام والتاريخ العربي الاسلامي فقد اورد حكماً واقوالا لعدد كبير من الملوك والفلاسفة لامم مختلفة (٦٦) ويأتينا بالعديد من الخطب والاقوال التي قالها الخلفاء المسلمون (٦٧) .

ومن ناحية اخرى نجد في مدونات الثعالبي عدداً من اقوال وحكم الفلاسفة اليونان ومنها مانحدث به الحكماء عند تابوت الاسكندر (٦٨) ضمن النظر والتصور الاسلامي لهؤلاء الفلاسفة وحكمهم . كما نجد للثعالبي بعض الامثال يرويها ويقول عنها انه اخذها من الكتب المقدسة وهي التوراة والانجيل والزبور (٦٩) .

لقد اشتمل المحتوى التدويني لمؤرخنا على مساحة واسعة من المراسلات والمكاتبات حيث اورد الكثير عنها نتيجة لاتصالاته ببيوت الحكم في نيسابور وبخارى وخوارزم وغزنة فضلاً عن علاقاته الواسعة مع الكتاب في تلك البلاطات ناهيك عن كونه هو نفسه احد الكتاب للندماء للبلاط المقربين الى دواوينه وقد تنوعت الكتب التي اوردها فشملت على الكتب الرسمية والمراسلات الاخوانية والادبية(٧٠) وكان المحتوى اللغوي لبعض الكتب احد عوامل أهتمام الثعالبي بها ، ولكن المحتوى التاريخي لهذه النصوص هو الغالب عليه وهنا تظهر طبيعة العلاقة المتلازمة بين الادب والتاريخ لديه .

وبعد ذكر المراسلات والمكاتبات سمة لكتاب هذا العصر ممن اتصل بالبلاطات او من كان كاتباً للديوان وثمة كتب مهمة نجدها عند الثعالبي تبين لنا من خلالها حالة عصره السياسية والاجتماعية ومنها مااورده الثعالبي عن العصور التي سبقته من غير ان يذكر لنا مصدرها وربما يكون قد اطلع عليها في دواوين للرسائل وسجلاتها التي صارت تحت يده عبر تجوانه في اقاليم المشرق الاسلامي او من كتب مفقودة لم تصل الينا ، ولم يذكرهما لنا مؤرخنا ، ومنها مايختص بكتب للعصر للراشدي والاموي كالذي اورده من وصية ابي بكر للجيش المتوجه نحو للشام (٧١) وكتاب استخلاف ابي بكر لعمر (٧٢) ، وغيرهما من للنصوص التي اوردها الثعالبي فيكتابه : الاقتباس من للقرآن للكريم الذي ألفه قاصداً به التعابير اللغوية التي اخذت من القرآن الكريم ، ولكن المحتوى للتاريخي في نصوصه هو الطاغي على محتوى للكتاب ، وهنا يمكن ان نلاحظ للتلازم بين الادب والتاريخ لدى مؤرخنا .

ويورد لنا كتباً كثيرة من العصر العباسي (٧٣) . وعن عصره ومنها كتب ذات قيمة تاريخية كبيرة ككتاب كتبه نوح بن منصور للساماني الى قائده ابي علي بن سميجور

عندما هاجم الاتراك بخارى عام ٣٨٣هـ- ٩٩٣م وفيه يطلب نوح من قائده المساعدة ، ويذكر لنا الثعالبي نصاً مقتطعاً من الكتاب «وانما تحتاج الدولة الى عمادها اذ قصدها من يزعزع من اوتادها فالله الله في هذه الدولة ، فقد جاءتك مستغيثة بل مستعينة اياك لاجئة اليك» (٧٤) كما يورد كتباً لكتاب الرسائل الذين خدموا آل بويه يظهر لنا من خلالها العلاقة بين الخلافة وآل بويه في هذه الفترة (٧٥) .

ومن هذه الكتب ما كتب على لسان الخليفة العباسي الطائع لله (ت٣٨١هـ - ٩٩١م) الى ركن الدولة البويهي عند مجيء عضد الدولة الى العراق «فانت وعضد الدولة كلاكما الله يدا امير المؤمنين فيما يأخذ ويندر وناظراه فيما يقرب ويبعد بكما افترش مهاد الملك بعد افتضاضه ورفع منار الدين بعد انخفاضه» (٧٦) وفي هذه الكتب اخبار عن بعض الاحداث كفتح عمان على عهد عضد الدولة بعد ان سيطر عليها الزنوج الافارقة (٧٧) .

واخيراً ومن خلال استقرائنا للمحتوى التدويني لدى الثعالبي نراه ينفرد في ذكر بعض الاحداث التي عاشها عصره ولم يأت بذكرها سواه من معاصريه ومنها على سبيل المثال ما قدمه من وصف لاحدى سيدات بني حمدان (جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني) وما قامت به من اعمال البر في حجتها إلى بيت الله الحرام وما آل اليه امرها بعد ذلك على يد عضد الدولة البويهي (٧٨) .

وينفرد الثعالبي في ايراد اخبار محاولة اثنين من اولاد خلفاء بني العباس من تكوين جيوش لهم في المشرق للتوجه نحو بغداد والقضاء على سلطة البويهيين واعادة الهيبة للخلافة العباسية وهما ابو طالب عبدالسلام بن الحسين الماموني (٧٩) . وابو محمد الواثقي ونجاح الاخير في استقطاب قائد الترك لاسقاط الحكم في بخارى عام ٣٨٣هـ/٩٩٣م وقد انتهى امر الواثقي بموت قائد الترك ورجوع نوح بن منصور الساماني إلى بخارى وعودة الواثقي بعدها إلى العراق قبل ان يحقق اماله (٨٠) .

وبعد فالمحتوى التاريخي عند الثعالبي واسع ومتشعب ، فقد رأيناه مثابة المادة الاولية التي تشكل منها الهيكل البنائي للهدف الذي وضعه لهذا التدوين معبراً في الوقت نفسه عن سعة افق في كيفية عرضه للاحداث جعلته يعد بحق «جاحظ نيسابور وراس المؤلفين وامام المصنفين في عصره» (٨١) .

٣ ـ الأسلوب

جاء الاسلوب التدويني للذي اتبعه الثعالبي في تعامله مع النصوص معبراً عن الهدف الموضوع لهذا التدوين ومتخذاً اتجاهين واضحين حددا معالمه ، تمثل الاتجاه الاول في كيفية التعامل مع النص وطريقة معالجته بينما تمثل الاتجاه الثاني بالاسلوب اللغوي الذي اتبعه في عرضه للنصوص وربطه فيما بينها .

لقد طغى المنهج السيري على اسلوب عرض الحدث التاريخي عند الثعالبي متخذاً مسارين بني الأول على اتخاذ شخصية الحاكم محركاً للتاريخ وقام الثاني على استخدام التراجم اطاراً يحوي النصوص الادبية التي يصبو إلى عرضها ، وهنا برزت الصلة الوثيقة بين الادب والتاريخ في تدوينه التاريخي وتمثل هذا المسار في كتابيه اليتيمة والتتمة .

وكان المسار الأول واضحاً في كتابه تاريخ غرر السير الذي يعد منهجه امتداداً لكتب الطبقات الأولى بشكل او بآخر مختطاً الطريق الذي وضعه الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم دليلا له (٨٢) فقد تأثر الثعالبي بهذا المنهج بشكل كبير ، وتمثل اسلوب عرضه التاريخي ضمن هذا المسار في كون المترجم له هو التاريخ نفسه وبوفاته ينتهي عهد وتاريخ ويبدأ تاريخ جديد ، وهذا الاسلوب «يضع الكتابة التاريخية المستندة اليه في خانة مغايرة لتلك التي تنظم الكتابة الحولية . هذا مع ان تنظيم التاريخ على الملوك يبقى تنظيماً زمانياً يتخذ فيه الملوك مكان السنوات كوحدات التنظيم والبناء الاساسية ليس بالمحاكاة بل بالمطابقة البنيوية والمماثلة من حيث المضمون» (٨٣) واشتمل هذا الاسلوب التدويني عنده ثلاثة خطوط «الكلام في شخص الملك من نسب ومولد ووفاة ومناقب وزوجات واولاد. والكلام في الأفعال كالحروب والفتوح والوزراء والحجاب ، واخيراً للكلام فيما جرى في زمانه من الاحداث الجسام والحوادث العجيبة والامور الغريبة» (٨٤) فضلا عن ايراد بعض الاقوال الحكيمة وما جرى من كلامه مجرى الامثال (٨٥) . فالملك عنده هو عقدة التاريخ «وهو اساس تنظيم التسلسل وسياقة الاخبار» (٨٦) .

اما اسلوب عرض الترجمة الذي سار عليه في اليتيمة والتتمة فقد اتسم بوحدة الموضوع للمترجم عنه فقول للشعر هو الهدف الاساس لذكر الترجمة فقد وجه الكتابين عنايتهما الى جمع اشعار عصر المؤلف . فالترجمة عولجت من حيث ذكر الاسم والنسب والعمل الذي يقوم به المترجم له ومكان مولده والاقليم الذي يعيش فيه مع ذكر لأبرز قصائده (٨٧) وذكر وفاته مع السنة في بعض الاحيان (٨٨) وفي كثير من الاحيان لايذكر السنة بل يكتفي

بعبارة «رحمه الله» (٨٩) اما اذا كان المترجم عنه من عليه القوم او من اعلام العصر فتراه يسهب في الحديث عنه. وأذا كان كاتباً اورد عدداً من نصوص كتبه(٩٠) ، وفي بعض الاحيان لايذكر لنا من الترجمة غير الاسم وما يقوم به المترجم له من عمل بشكل مختصر جداً (٩١) وهذا أت في أعتقادنا من قلة ما يعرفه المؤلف عن هذا الشخص اوالى ان المترجم له ليس بذي مكانة كبيرة في المجتمع تستحق التفصيل عنه ، لاسيما وأن الثعالبي ينشد اسلوب الاختصار في عرضه لتراجمه (٩٢) او لربما يكون المترجم له شخصاً معروفاً بشكل و اضح وجلي في ذلك العصر او يكون قريباً منه . لذا لايرى ضرورة لذكره بشكل مفصل . ولقد أتسم مؤرخنا بالدقة في عرضه لتراجمه (٩٣) واتبع منهجاً جديداً في تقسيم تراجمه لم يسبقه اليه احد قبله ، وهو المنهج الاقليمي . حيث ابتعد عن المنهج الطبقي الذي يقسم الشعراء على حسب مكانتهم الفنية كما هي الحال عند ابن سلام الجمحي (ت٢٣٢هـ/٨٤٢م) ، واتجه الى تقسيم المترجم لهم في مجموعات بحسب الاقليم الذي يعيشون فيه او البلد الذي يضمهم او البلاط الذي يجمعهم او الاسرة التي ينتمون اليها (٩٤) . من الاقليم الواحد ، وهو في الحقيقة منهج مبتكر املته عليه ظروف عصره ، ولقد حاول احد الباحثين ان يقلل من قيمة منهج الثعالبي هذا ، وقال عنه : انه طريقة سهلة وجدها لذكر تراجمه ، ولم يكن للاقليم والبيئة دور في تفضيله لاسبقية عرض تراجمه (٩٥) ولكن الحقيقة تقول ان البيئة اللغوية وطبيعة الاقليم هما الاساسان اللذان قام عليهما منهج الثعالبي ، ويؤكد ذلك مؤرخنا عند بداية الحديث عن أهل الشام وسبب ذلك (٩٦)

ولقد كانت النظرة التي تعامل بها الثعالبي مع النصوص واسلوب عرضه للاحداث وطريقة استخدامه للمصطلح التدويني متشعبة المظاهر تظهر من خلالها بصمات المنهج الخاص الذي اتبعه في عرضه للحدث المروي له او الذي عاصره ، وذلك انه كان يؤكد على ان مايقدمه من روايات قد درست من قبله وحقق سند خبرها محاولا اعطاء اصح الروايات عن مروياته ، ويقول «وأنا اسوق اتم الروايات واحسنها ، وعند الفقهاء ان للخبر لمن زاد فكيف عند اصحاب التواريخ الذين لايخلون من التخاليط والاغاليط» (٩٧)

فالزيادة في ذكر ما يروى عن الخبر واجبة كما ان الدقة في نقلة مطلوبة ويصف لنا معاناته في البحث عن النصوص واسلوب روايتها «ومن يقدر على حصر الانفاس وضبط بنات الافكار وفي الزوايا خفايا ولانهاية للخواطر ولامنقطع لمواد المحاسن وما على المؤلف الا جهده» (٩٨) .

ومن جانب اخر تراه لايقف موقف الناقل للرواية دون مناقشتها وابداء رأيه فيها ، مثال ذلك ما اورده من اقوال للفرس في أساطيرهم عن اول ملك لهم وهو كيومرث وقولهم فيه انه ادم (ع) (٩٩) ونراه يرد عليهم بعد عرض لارائهم بقوله: وكيف يصح ذلك وفي التواريخ ان أدم عليه السلام عمر بعدما هبط الى الارض الف سنة وكيومرث ملك ثلاثين سنة» (١٠٠) وعن رواية اخرى للفرس وقولهم في أحد ملوكهم : انه سليمان (ع) يقول: «ذلك محال كبير وغلط عظيم» (١٠١) وفي كثير من الروايات التي كان لايقتنع بصحتها ينتهي بعبارة «والله اعلم» (١٠٢) بعد ذكرها اويقول: «فيما يحكي(١٠٣) اوحسب زعم شخص او فئة من الفئات (١٠٤) ويترك الرواية على عهدة المصدر الذي اخذ عنه .

ولاحظنا كذلك انه كان يحاول تفسير النص من خلال اسلوب عرضه ويبدي رأيه فيه (١٠٥) ورأيناه عند رواياته لبعض الاحداث يتدخل في سرد الحدث باسلوب ينم عن نصح وارشادات لمن يؤلف له وذلك باضافة عبارات في تقويم ، الحدث من خلالها مستلخصاً منه للعبرة الاخلاقية ، ومثال ذلك ماتحدث به من تقسيم احد الملوك لمملكته بين ابنائه . فقد اورد بعد ان اتى على تفاصيل الحدث «وزل زلة اللبيب ،وأخطأ خطأ الاديب وعثر عثار الملوك في العمل بالهوى لابالرأي» (١٠٦) .

ولديه مواقف اخرى ، ومنها ما اورده عن حكم ملكين الاول صالح والثاني فاسد ومدة حكم كل منهما ، وحكم الاول خمس سنين ، والثاني اربعمائة سنة ، ، وقال «فسبحان الله الذي له في كل قضية الطاف نعرفها فنثبتها في فضله ونعمته ونجهلها فنردها الى عدله وحكمته وله الخلق واليه الامر سواء عنده السر والجهر »(١٠٧) وهنا حاول ان يقدم العبرة المستخلصة من الحدث ، ولما لم يستطيع تحليل اسباب الحدث حتى يربط بين الحدث واسبابه من خلال العبرة ، اقول عندما لم يستطع ذلك ارجعه الى الارادة الالهية في حدوثه . ولـه نصوص اخرى في هذا الجانب (١٠٨) .

ويتسم عمله بالدقة في تعامله مع تراجمه فعند عدم يقينه من كون الذي يترجم عنه ميتاً أو حياً كان يقول «اغلب الظن» (١٠٩) .

وثمة عبارات يذكرها عند عدم ثقته بصحة الروايات التي ينقلها ومنها اظن (١١٠) «اشك» (١١١) «اما»(١١٢) «طعن في صحة الخبر»(١١٣) «لست من صحة بعضه على يقين »(١١٤).

ونجد المقارنة بين الاحداث شائعة لديه . فقد يذكر اقوالا واحداثاً قد قيلت او وقعت قبل الاسلام ويقارنها مع اقوال وافعال حدثت من قبل الساسة والعلماء في الاسلام (١١٥) وهذا ربما يكون متاتياً من تأثره بفلسفة الحكمة الابدية التي كانت شائعة في عصره .

ولقد كان امر شائعاً بين علمائنا اختصار النصوص التي يروونها (١١٦) ومورخنا من سار على هذا النهج ، فقد كان يختصر بعض النصوص لطولها كاختصاره للرسائل التي تبودلت بين المنصور ومحمد ذي النفس الزكية ، وقوله عنها «وجرت بينهما مراسلات ومراجعات يطول الكتاب باقتصاصها» (١١٧) واختصاره لقصة الاسكندر عند خروجه نحو المغرب بقوله : «ولو فصلت هذه الجملة واستتمت هاتيك القصص لاستغرقت الصحائف وخرجت عن رسم هذا الكتاب المبني على اللمع والنكت» (١١٨) وهناك اشارة الى أنه كان يحدد منهج كتابه كتبه قبل البدء بها ويضع ما يحويه الكتاب في المقدمة . ولم يحدثنا بالشيء الكثير عن الاخبار المشهورة والقصص السائرة حسب رايه ، لانها «مشهورة معروفة بل كان يطرح القارىء الاخبار الاقل شهرة ، ويكتفي من الاخبار المشهورة ، بالاشارة اليها فقط (١١٩)

وللثعالبي اسلوب واضح في عدم تكرار نصوصه وفي حالة تكرار النص لديه يكون ذلك لسبب مقنع يوجب ذلك وهو بدوره يحيل الى النص الذي ذكره سابقاً او الذي سياتي فيما بعد ، فلي ذكره بصورة عرضية لاحد ملوك اليمن في نص له قال : «وانا اعيد ذكره في الاذواء من ملوك اليمن» . (١٢٠) وفي حدث آخر ، قال «ويجيء ذكرهـــا في مكانه من هذا الكتاب» (١٢١) كما انه اراد التفصيل في الحدث يذكر انه سوف يفصل فيه في مكانة (١٢٢).

وكان عند الاحالة الى اماكن النص لاينسى فضل غيره فيما دونه عن الموضوع مثال ذلك ما دونه عن قريش مضافاً لما دونه الجاحظ اذ يقول «سيمر بك في هذا الكتاب من نكت فضائلهم وغرر غرائبهم ما تكثر فائدته وتطيب ثمرته وأن كان لاتزيد على وصف الجاحظ لهم ومدائحه اياهم» (١٢٣) وكذا في اليتيمة عند تعامله مع تراجمه «(١٢٤) .

ومن العبارات التي تدخل ضمن المصطلح التدويني التي أستخدمها عند احالة القارىء الى نص قد ذكره سابقاً ويطلب منه مراجعته «قوله فليرجع» (١٢٥) كما انه كان يحيل القارىء الى المصادر التي تمكنه من الاستزادة في المعلومات عن الموضوع الذي يتحدث عنه (١٢٦) مع اعطائه تقويماً لبعضها، مثال ذلك موقفه من كتاب التاجي للصابي ، فقد قال عنه «من اراد أن ينظر في أخبار عضد الدولة ويقف على محاسن اثارة فليتامل الكتاب التاجي من تأليف ابي اسحاق الصابي » (١٢٧) .

ولقد كان حين يسهب في موضوع ويتجاوز الحد الذي وضعه له نراه يعتذر الى القارىء بمثل قوله : «وارجع الى المتن فقد طال الاسناد ولا يكاد الكلام ينتهي حتى ينهى منه» (١٢٨) وهنا نجد الخبر المركب واضحاً في نصوصه .

وثمة عبارات ترد عنده عند تداخل الروايات في النص الواحد وعدم استطاعته تمييز قول كل راو عن النص ، كقوله : «قد دخل حديث بعضهم في بعض» (١٢٩) ، وكان يؤكد بعض الروايات بالدراسة والتمحيص ، ومنها مثلاً ماقبل عن اسلام السرى الرفاء «بلغني انه اسلم صبياً .. ومما يدل على ذلك ماقرأته بخطه» (١٣٠) .

كما انه يوجه بعض الانتقادات الى بعض اخطاء عظماء الكتاب لديه ، لم يقبله منهم مثال ذلك ماذكره عن الجاحظ وروايته عن التماسيح «زعم الجاحظ ان التماسيح لاتكون الا في وادي النيل والقرود لاتكون الا باليمن ، وقد غلط فان في وادي كنك من ارض الهند تماسيح وفي بعض بلادها قروداً كثيرة» (١٣١) . كما انه ينتقد بعض الكتاب في تعصبهم للفرس ويرفض هذا التعصب ويصحح اخطاءهم حباً منه لصحة المعلومة المروية وتفانياً منه للعربية والاخلاص للعروبة (١٣٢) .

وقلما نجد التحديد الزمني للحدث في تدوينه بالسنين المرقمومة (١٣٣) الاما جاء منها في كتابه تأريخ غرر السر ، فقد وجدناها واضحة عند حديثه عن الحاكم وسني حكمه (١٣٤) .

ولما كان احد اهداف تدوينه للتاريخ للسلطة الحاكمة (التسلية والملهاة) فقد كان احياناً يستجيب لرغباتها فيورد بعض الاساطير والخرافات في مدوناته مما لايقتنع به ، ومنها على سبيل المثال قصة رستم التي يقول عنها بعد ايرادها «وانا بريء من عهدة هذه الرواية ولولا شهرتها بكل مكان وفي كل زمان وعلى كل لسان وجريها بجرى مايستطاب ويلهىء به الملوك عند الارق لما كتبتها» (١٣٥) ويعود ويؤكد رايه فيها بقوله : «وهذه القصة الى منتهاها من بقية قصة رستم مما لايقبله العقل ، ولا يصدقه الرأي ، ولكني اوثر ان لايخلو كتابي هذا منها مع شهرتها وتداول الناس اياها وميلهم اليها واستطابة الملوك عجائبها .... وقد سبق القول في الاعتذار من امثالها ... ولنا من الاحاديث طيبها» (١٣٦) وله في هذا الجانب امثلة أخرى (١٣٧) .

ولذلك لاستغرب اذا ما احتوت مدوناته على قصص من (الاسرائيليات) ومنها على سبيل المثال رواية المرأة التي ذكرها في كتابه تأريخ غرر السر ، وقال عنها : «هذا مكان حديث يجري مجرى الخرافة ، ولكن الطبري قد اورده في كتابه التاريخ باسناد له وقراته في غيره من الكتب فكتبته وانا بريء من عهدته» (١٣٨) . وقد ذكر لنا في هذا الجانب

العديد من الروايات عن وهب بن منبه وبعض اقاصيص الفرس (١٣٩) . وفي احيان قليلة كان يذكر الرواية والآراء التي قيلت فيها دون ترجيح (١٤٠) .

اما فيما يتعلق بالجانب الثاني ، اي كيفية كتابة النصوص وربط الاحداث التاريخية باساليب كتابية لغوية وتعبيرية فان اسلوب (السجع) قد غلب على الطريقة التدوينية لديه ، لاسيما في كتبه تاريخ غرر السير . واليتيمة والتتمة . وكانت هذه الطريقة هي المتبعة في الكتابة سواء الادبية منها ام التاريخية في عصره . لا سيما اذا كان المدون إلى الملوك ومن هم من علية القوم .

واصبح هذا الاسلوب احد الاساليب المميزة لكتاب الرسائل وكتاب البلاط في هذا العصر ووصل في بعض الاحيان إلى الغاية من حيث التعقيد والزخرفة اللفظية للكلمات عند بعض الكتاب بحيث طغى اسلوب السجع والزخرفة اللفظية على الحدث المروي بعد ان كان يرد عند الكتاب في العصور السابقة باسلوب سردي مبسط . وربما يكون الصابي هو اول من ادخل هذا الاسلوب على التدوين التاريخي في كتابه المفقود : التاجي (١٤١) .

وعلى الرغم من هذا فإن اسلوب السجع لم يؤثر كثيراً على معالجة الحدث المروى في كتبه التي استخدم فيها هذا النوع من الصيغ البلاغية في التدوين ويؤكد لنا استخدام هذا الاسلوب في كتابه تاريخ غرر السير ، في طريقة عرضه الروايات «واكسوها شعاراً انيقاً من الفاظ كتاب الرسائل واسلك بها في طرقهم وانسجها على طرزهم اذ كلامهم سحر العقول ورقى القلوب ومن نمط الملوك» (١٤٢) . ولكن السجع لم يطغ على جميع مؤلفاته ، فقد رأينا الاسلوب المرسل السهل واضحاً في كتاباته في اغلب كتبه مما يجعلنا امام نمط كتابي سار عليه ، اذ انه جمع بين الكتابة المنمقة او ما عرف بالادب الرفيع لطبقة من الناس واسلوب الاختيارات التي تكتب لاغلب فئات المجتمع (١٤٣) . ومن الاساليب الكتابية لديه ادخال الحكميات واقوال الفلاسفة والاشخاص البارزين عبر العصور ضمن باب (العبرة الاخلاقية) وما عرف بمصطلح (الحكمة الابدية) الذي ساد عصره في محاولة للتعبير عن امكانية التشابه الفكري للعقل الانساني على الرغم من تباعد الازمان والامكنة ، وخلق جو من الحوار بين التيارات الفكرية المختلفة داخل المجتمع العربي الاسلامي .

وثمة ملاحظات اخرى يمكن الاشارة اليها في اسلوبه الكتابي ، فالاقتباس من القرآن

الكريم واضح لديه نتيجة تعلقه الشديد بالاسلام ، وكان يقول : «من اراد ان يعرف جوامع الكلم ويتنبه على فضل الاعجاز والاختصار ويحيط ببلاغة الايماء وينطن لكفاية الايجاز فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام» (١٤٤) .

واخيراً لعبت المقطوعات الشعرية والامثال العربية دوراً في اسلوبه الكتابي ، فقد أدخلها في مناقشته أو نقده للاحداث أو تعليقه عليها (١٤٥) .

الهوامش :

* - أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري ، الأديب المؤرخ ولد في نيسابور عام ٣٥٠ هـ-٩٦١ قضى حياته المبكرة طالبا في كتاتيب مدينته ليصبح بعدها مؤدب صبيان ومن ثم صوب بصره نحو بلاطات المشرق فعمل فيها كاتبا ونديما في آن معاً متنقلا بين مدينة نيسابور وبخارى وجرجان فخوارزم ومن ثم غزنه وعاد بعدها إلى مدينة نيسابور لتكون وفاته عام ٤٢٩هـ- ١٠٣٧ م .

(١) جب : هاملتون ، دراسات في حضارة الأسلام ، ترجمة ، احسان عباس واخرون (بيروت ١٩٧٤) ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) نفسه ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) حمدون عبدالستار ، أثر كتاب الدواوين في التدوين التاريخي، رسالة ماجستير غير منشورة (الموصل : ١٩٨٣) ص ٦١ .

(٤) الثعالبي : أبو منصور ، تأريخ غرر السير ، تحقيق ، زوتنبرك (طهران : ١٩٦٣) ص ٧٤٨، وينظر كذلك حول مصطلح العبرة ، لطائف المعارف ، تحقيق ، ابراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي (القاهرة: ١٩٦٠) ص ١٤٢ - ١٤٧ .

(٥) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، المقدمة ، ١ .

(٦) نفسه ، ٧١١

(٧) الثعالبي : أبو منصور تحفة الوزراء ، تحقيق ، ابتسام الصفار وحبيب الراوي (بغداد : ١٩٧٧) ص ٨١ .

(٨) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، المقدمة ، ١ .

(٩) حمدون ، ص ٨٦ .

(١٠) نفسه

(١١) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(١٢) الثعالبي : أبو منصور ، غرر السير ، مخطوطة ، اليودليان ، تحت رقم (٥٤٢) ورقة ١٦٧ .

(١٣) الثعالبي ، تحفه الوزراء ، ص ٥٤ .

(١٤) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، ص ١٣٧ .

(١٥) روزنثال : فرانز علم التأريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح أحمد العلي (بغداد : ١٩٦٣) ص . ١٩٧ .

(١٦) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، المقدمة ، ص ١ .

(١٧) نفسه : ص ١ - ١١١X

(١٨) نفسه ص ١٤٧ .

(١٩) نفسه ص ٤٢٤ .

(٢٠) الثعالبي ، غرر السير ، ورقة ١١٧ .

(٢١) نفسه ، ورقة ١٢٢ .

(٢٢) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، المقدمة ١ .

(٢٣) نفسه ، ص ٢٣٩ .

(٢٤) نفسه ، المقدمة ١ .

(٢٥) الثعالبي : أبو منصور ، احسن ماسمعت ، شرح وتعليق ، محمد صالح عنبر (القاهرة : ١٣٢٤هـ) ص ٢٣

(٢٦) الثعالبي : أبو منصور ، المبهج (مصر ١٩٠٤) من ١٦ - ١٧ .

(٢٧) الثعالبي : تأريخ غرر السير ص ٣٩٩ - ٤٥٦ .

(٢٨) نفسه ص ٧٣٧ - ٧٣٨ .

(٢٩) الثعالبي ، تحفة الوزراء ، ص ٩٣ .

(٣٠) نفسه ، ص ١٣ .

(٣١) نفسه ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٣٢) نفسه ، ص ٥٣ .

(٣٣) نفسه ص ٧٥ - ٧٦ .

(٣٤) نفسه ص ٥٠ .

(٣٥) نفسه .

(٣٦) نفسه ص ٥١ .

(٣٧) نفسه ص ٥٢ .

(٣٨) نفسه ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣٩) الثعالبي : أبو منصور ، يتيمة الدهر ، تحقيق ، محمد محي الدين عبدالحميد (بيروت : ١٩٧٣) ج٣ ، ص ٨٧ ، ١٨٦ - ١٨٧ .

(٤٠) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ص ١٤٨ .

(٤١) نفسه ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤٢) الثعالبي ، أبو منصور ، الكناية والتعريض ، تقديم علي الخاقاني(بيروت دون تأريخ ص ٥٣ ، ثمار القلوب ، تحقيق ، محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة : ١٩٦٥) ص ٤٤٠ على سبيل المثال .

(٤٣) الثعالبي ، لطائف المعارف ، ص ٢٢ .

(٤٤) نفسه ، ص ١٢٠ – ١٢١ ثمار القلوب ص ١٦٥ – ١٦٦ .

(٤٥) الثعالبي الطائف المعارف ، ص ١٢٢ – ١٢٣ .

(٤٦) نفسه ، ص ١١٨ – ١١٩ .

(٤٧) الثعالبي : ثمار القلوب ص ١٩٤ – ١٩٥ .

(٤٨) نفسه ، ص ١٩٥ .

(٤٩) نفسه ، ص ١٩٥ .

(٥٠) الثعالبي : أبو منصور ، اللطف واللطائف ، تحقيق ، محمود عبد الله الجادر (الكويت : ١٩٨٤) ، ص ٢٤ .

(٥١) الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ٢٢ – ٢٣ .

(٥٢) الثعالبي : ثمار القلوب ، ص ٥٣٠ – ٥٤٥ ،لطائف المعارف ، ص ١٦٠–٢٢٨ .

(٥٣) الثعالبي / ثمار القلوب ص ٥١٢ .

(٥٤) ينظر الجاحظ : عمر بن بحر ، كتاب البلدان ، تحقيق ، صالح احمد العلي (بغداد: ١٩٦٧) مجلة كلية الاداب ، العدد العاشر .

(٥٥) الثعالبي / تاريخ غرر السير ، ص ٥٢ – ٢٦١.

(٥٦) نفسه ، ص ٢٥٨.

(٥٧) نفسه ، ص ٢٦١ .

(٥٨) نفسه ص ٥٠١ .

(٥٩) نفسه ، ص ٥٩٥ – ٦٠٥ .

(٦٠) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ١٨٢ .

(٦١) نفسه ، ص ٩٠ – ٩٢ ، ١٥٩ – ٦٥٣ .

(٦٢) نفسه ص ٥٢٤ .

(٦٣) نفسه ص ٥٢٣ .

(٦٤) المسعودي : علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق ، اسعد داغر (بيروت /١٩٧٣) ج١ ، ص ٤١٦ .

(٦٥) الثعالبي : ثمار القلوب ، ص ٥٢٢ لطائف المعارف ، ص ١٦٤ – ١٦٥ .

(٦٦) الثعالبي : أبو منصور ، خاص الخاص ، تقديم ، حسن الأمين (بيروت : ١٩٦٦) ص ٨٤ – ٨٥ الاعجاز والايجاز ، تحقيق ، اسكندر اصاف (بيروت : دون تأريخ) ص ٣٨ – ٦٣ .

(٦٧) الثعالبي : ثمار القلوب ص ١١٧، ٥٩٤ . الأقتباس من القرآن الكريم ، تحقيق ، ابتسام الصفار (بغداد: ١٩٧٥) ج١، ص ٩٦ – ١٠٠، ص ١٢٤ – ١٢٧. الاعجاز والايجاز ، ص ٨٥ – ٩٤ .

(٦٨) نفسه ، ص ١٢٥ – ١٢٦ ، التمثيل والمحاضرة ، تحقيق ، عبد الفتاح الحلو (القاهرة: ١٩٦١) ص١٥٥ – ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ٣٩٦، ٤٢١، تأريخ غرر السير ص ٤٥٠ – ٤٥٢ .

(٦٩) الثعالبي : التمثيل والمحاضرة ص ١٤ .

(٧٠) الثعالبي : اليتيمة ج ١ ، ص ٢١٦، ج ٢ ، ٢٩٤، ٤٠٢ – ثمار القلوب ٤٢، ٤٣، ٥٢، ٨٢ ، ١٥٤ ..... الأعجاز والايجاز ، ١١٥، ١١٦، ١١٨ .... وفي كتب اخرى .

(٧١) الثعالبي ، الأقتباس من القرآن الكريم ،ص ٩٩ والنص يختلف عما في الطبري (المحققة)

(٧٢) نفسه ، ص ١٠٣ – ١٠٤ .

(٧٣) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص ٨ .

(٧٤) نفسه ، ص ١٥ .

(٧٥) الثعالبي ، اليتيمة ج٢ ، ص ٣١٢ والتي تليها .

(٧٦) نفسه ، ص ٣١٢ .

(٧٧) نفسه ، ص ٣١٩ – ٣٢٠ .

(٧٨) الثعالبي ، لطائف المعارف ، ص ٨٢ – ٨٧ ، ثمار القلوب ، ص ٢٠٥ .

(٧٩) الثعالبي ، اليتيمية ج٤ ، ص ١٦١ – ١٦٢ .

(٨٠) نفسه ، ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(٨١) ابن بسام : أبو الحسن علي ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق، احسان عباس (بيروت : ١٩٧٩) القسم الرابع ، الجلد الثاني ، ص ٥٦٠ – ٥٦١ .

(٨٢) الخوارزمي : أبو عبدالله محمد مفاتيح العلوم (مصر: ١٣٤٢هـ) ص ٦٢ – ٧٨ .

(٨٣) العظمة . عزيز ، الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية (بيروت : ١٩٨٣) ص ٥٩.

(٨٤) نفسه ص ٧٢ .

(٨٥) انظر اماكن متفرقة من كتاب تأريخ غرر السير .

(٨٦) العظمة ، ص ٧٦ .

(٨٧) الثعالبي ، اليتيمة ج ٣ ، ص ١٣١ .

(٨٨) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٦ ج٣ ، ص ١٤٤ ، ٢٧٩ .

(٨٩) نفسه، ج ٢، ص ١٤ ، ٢٥، ٢٢٢، ٣٧٦ ، ج ٤ ، ص ١٢٦ .

(٩٠) نفسه ، ج١ ، ص ٩ وماورد في الكتاب في اماكن متفرقة منه من نصوص الكتب والمراسلات
(٩١) نفسه ، ج٣ ، ص ٦٧، ١٠٧ ، ١١٧ . ج٤ ص ٤٧ ، ٨٢ ، ٩١ ، ٩٣ .... تتمة اليتيمة ، تحقيق عباس القباني (طهران : ١٣٥٣ هـ) ، ج ١ ، ص ، ١١ ، ١٤ ، ١٩٠ ٢٠ ، ٢٩ .... ج ٢ ص ٩٠ ، ٢٠ ، ٢٣، ٢٥ ، ٣٤، ٤٤ .....
(٩٢) الثعالبي : اليتيمة ج ١ ص ٧ .
(٩٣) عبد الرحمن : منصور ، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري (القاهرة ١٩٧٧) ص ٥١ .
(٩٤) نفسه ، ص ٤٦ .
(٩٥) عباس : احسان ، تأريخ النقد الأدبي عند العرب (بيروت : ١٩٧١) ص ٣٧٥ .
(٩٦) الثعالبي : اليتيمة ج ١ ص ١٢ .
(٩٧) الثعالبي / تأريخ غرر السير ، ص ١٠٨ .
(٩٨) الثعالبي : اليتيمة ج ١ ، ص ٩ .
(٩٩) الثعالبي : تأريخ غرر السير ص ١ – ٣ .
(١٠٠) نفسه : ص ٣ .
(١٠١) نفسه ، ص ١١١ .
(١٠٢) نفسه : ص ١٠٤– ١٣١ ، ٤٠٠ ، ٤٤٢، ٤٥٦ ، لطائف المعارف ، ص ١٩٧ ، ثمار القلوب ص ٦٤، ٧٧، ٩٥، ٤٤١ ، ٦٢٨ كمثال لورود هذه العبارة في مؤلفاته لاحصر لها .
(١٠٣) الثعالبي : ، تاريخ غرر السير ، ص ٢٤ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ٤٦٦، ٤٧١، ٦٤١، ٧٤١، لطائف المعارف ، ٧ ، ٣٦، ١٠٨، ١٢٠، ١٦٩، ١٨١ ....) ثمار القلوب ص ١٣٥، ١٥٧، ١٦٥، ١٨٣، ١٨٨ .... .
(١٠٤) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، ص ، ٧ ، ٨، ١٠، ٣٠، ٢٥٩، ٢٩٨، ٤٧٣ ، ٧٠١ ، لطائف المعارف ، ٤٥، ٩٩، ٦٤، ثمار القلوب ، ٧١، ٨١، ١٢٨، ١٣٦، ٢٥٩، ٢٨٩، ٣١٤.
(١٠٥) الثعالبي ، اليتيمة ، ج٣ ، ص ٢٣٧، حول سيطر الصاحب ، ثمار القلوب ١٢٤ عن حكمة لقمان ، ٤٩٢ حول احد امثال العرب .
(١٠٦) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، ص ٤٢.
(١٠٧) نفسه ، ص ١٢٧ .
(١٠٨) الثعالبي اليتيمة ، ج١، ص ٩٢ حول قتل فخر الدولة البويهي لاخيه حيث قال مؤرخنا : المكر السئ لايحيق الا باهلـه ونصوص اخرى له ، ج٣ ، ص ١٥٥ ثمار القلوب ص ، ٢١١ .

(١٠٩) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .
(١١٠) نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، ٣٠١ ، الاعجاز والايجاز ، ص ١٥٣.
(١١١) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ٢ ، ص ١٧ ، ج٣ ، ١٠٨ ..
(١١٢) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، ص ٢١٩ .
(١١٣) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٦١ .
(١١٤) الثعالبي/ أبو منصور فقه اللغة وسر العربية (بيروت / دون تأريخ) مكتبة الحياة ص ١٩١ .
(١١٥) الثعالبي، تأريخ غرر السير، ص ١٥٣، ١٧١، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٦٣، ٤٩٥، ٦٨٩، اليتيمة، ج ٤، ص ١٣٥، خاص الخاص، ص ٤٩ – ٥٠، التمثيل والمحاضرة، ص ١٤٢.
(١١٦) روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ص ١٢٤ .
(١١٧) الثعالبي ، غرر السير ، ورقة ، ١٩٣ .
(١١٨) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، ص ٤٣٠ .
(١١٩) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٥٥، ٥٧، ٢٨٨، ٣٠١، ٦٨٤، .
(١٢٠) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، ص ١٥٥ .
(١٢١) نفسه ، ص ٢٤٤ .
(١٢٢) نفسه ، ص ٧٤٢ .
(١٢٣) نفسه ، ص ١٣٠ .
(١٢٤) الثعالبي ، اليتيمة ، ج ١ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ج ٢، ٣٥٣ ، ج ٣ ، ١٢٠ ، ١٢١، ٤١٧.
(١٢٥) نفسه ، ج٢، ص ٣٤٦.
(١٢٦) الثعالبي ، لطائف المعارف ، ص ٦٢ .
(١٢٧) الثعالبي ، اليتيمة ، ج٢، ص ٢١٧.
(١٢٨) نفسه ، ج١، ص ٢٩٦.
(١٢٩) نفسه ، ج٢، ص ٢٢٣.
(١٣٠) نفسه ، ص ١١٧ .
(١٣١) الثعالبي ، لطائف المعارف ، ص ١٦٤ .
(١٣٢) الثعالبي ، فقه اللغة ، ص ١٥٦ .

(١٣٣) مثال ذكر سنة وفاة بعض تراجمه ، اليتيمة ، ج٢، ص ٣٠٦، ج٣، ص ١٤٤ ، ٢٧٨، وعن بعض السنين المرتومة ، ثمار القلوب ، ص ١٩٠، ٥١٣، ٦٣٦.

(١٣٤) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، ص ١٧، ١٦٢، ٢٦٩، ٤٦٦، ٤٨٦، كثال .

(١٣٥) نفسه ، ص ٦٩ – ٧٠ .

(١٣٦) نفسه ، ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

(١٣٧) الثعالبي ، فقه اللغة ، ص ٥٠.

(١٣٨) الثعالبي ، غرر السير ، ورقة ، ١٧٩.

(١٣٩) الثعالبي ، تأريخ غرر السير ، ص ٣، ١٨، ٢٠، ٣٠، ٣٤٧، ٤٦٣،ثمار القلوب ص ٤٣، ١٢٥ .

(١٤٠) الثعالبي ، ثمار القلوب ، ص ٥٥، ٥٦٨، .

(١٤١) حمدون ، ص ٦٧ – ٦٨ .

(١٤٢) الثعالبي ، تأريخ غرر السير II XLx

(١٤٣) روزنتال ° فرانز ، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ترجمة ، انيس فريحة (بيروت : ١٩٨) ، ص ١١٤.

(١٤٤) الثعالبي ، الاعجاز والايجاز ، ص ١٠ .

(١٤٥) نفسه ، ص ٢٦، ٤٦، ٢٢٥، ٣٤٧،.